تعقيبا على عصام نعمان:

نار الفتنة الكبرى هل هي الفصل الأخير من مصير الأمة؟

علاء الدين الأعرجي*

■ أقرأ وأستمع وأشاهد، وأنا مذهول من وقع الأحداث وسرعة التدهور في طامة قد تشكل الفصل الأخير من نهاية مصير الأمة، التي نظل نتشبث بأمل إنقاذها من هاوية لا يبدو لها قرار.

أقول ذلك وأنا أطالع بأسف مقالتي الصديق د. عصام نعمان، بعنوان «حذار الفتنة على مستوى الأمة» المنشورة في صحيفة «الخليج» في 2007/1/6 و«هل أصبحت الفوضى طريقة حياة؟» المنشورة في صحيفة «القدس العربي»، بتاريخ 2007/1/10، اللتين أثارتا شجوني وظنوني.

الأولى حفزتني للتعقيب والبناء عليها، بدل الاكتفاء بإطرائها، لا سيما حين يقول: لا يكفي أن نتهم إدارة بوش وصنائعها ووكلاءها هنا وهناك بتنفيذ هذا المخطط الرهيب بل يجب أن نعي انه ما كان في وسع إدارة بوش أو أية جهة أخرى حليفة لها أو وكيلة أن تنجح في ما تسعى إليه لولا قابلية العرب والمسلمين في عالمهم وتعاملهم لتناول السمّ الأمريكي ممزوجا بالدسم. فالفتنة الكبرى التي تسعى إدارة بوش إلى إحيائها وتجديدها وتزخيمها إنما صنعها مسلمون أوائل في فجر الإسلام، ومارسوها أجيالاً وعصوراً في ضُحاه وظهره، على حدّ تعبير احمد أمين، فهل يكملّ مسلمون متأخرون في عصرنا ما كان قد اقترفه أقران لهم قدامى؟ (انتهى الاقتباس).

وتعقيبا على ذلك يمكن القول إننا كنا دائما تقريبا نحمِّل الآخر جريرة ما نتعرض له من مشكلات وما يصيبنا من كوارث. فنحن نصرخ يوميا في وسائط إعلامنا، وفي معظم مقالات وكتب مفكرينا وكتابنا، بما تفعله أمريكا وحلفاؤها بنا. ولكننا لا نكاد نتحدث عما نفعل نحن بأنفسنا. يقول شاعرنا العربي:

لا يدرك الأعداء من جاهل ما يدرك الجاهل من نفسه.

وكنت قد أشرت إلى هذه النقطة في العديد من كتاباتي، ولا سيما في كتابي «أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفعل». فالطامة الكبرى هي عدم وعي الذات بالذات، الذي ينطلق من مقولة سقراط اعرف نفسك، التي قالها قبل أكثر من 2300 عام، ثم من مقولة ديكارت أنا أفكر فأنا موجود التي أطلقها منذ منتصف القرن السابع عشر.

ولئن كنا لا نبرئ الآخر من السعي المتواصل لاستغلالنا واستنزافنا بل استعبادنا وإذلالنا، وزرع الفرقة فيما بيننا، فإننا يجب أن لا نستغرب من ذلك ولا نلومه على هذا التصرف، ذلك لأنه يسعى لتحقيق مصالحه الاستراتيجية والاقتصادية. ولكن السؤال هو: ماذا فعلنا نحن لمنعه أو ردعه عن ذلك؟ وإذا عدلّنا هذا السؤال، فيمكن أن نطرحه بالشكل التالي: كيف سعينا نحن لمساعدته على تحقيق مآربه فينا؟ فقد كانت الفتنة نائمة فأيقظها الآخر المحتل، ونحن صامتون بل صاغرون. وكان الجمر خافتا وقابعا تحت أكوام كثيفة من الرماد، فنبشه الآخر وأججه متعمدا، ونحن مشجعون ومهللون. أيها المفكرون العرب، يا رجال الدين العقلاء، أليست هذه عودة، غير ميمونة، أربعة عشر قرنا إلى الوراء؟

وحتى لو عُدنا أدراجنا إلى ذلك الزمن البعيد، واعين أو غافلين، مكرهين أو راضين، أليس الأحرى بنا مثلا أن نتأسى جميعا، سنة أو شيعة، بموقف الإمام علي حين قال له عمه العباس، بعد وفاة الرسول (ص): ابسط يدك أبايعك! وتكرر نفس العرض من أبي سفيان نفسه، ولكن عليا ًأبى بإباء أن يستجيب له، كما أبا أن يستجيب لعمه العباس، مخافة الفتنة، كما يقول طه حسين، في كتاب الفتنة الكبرى، «عليّ وبنوه»؟ (مجلد إسلاميات، ص848، بيروت: دار الآداب، 1967).

تفسير بقاء آثار الفتنة الكبرى من خلال نظرية العقل المجتمعي وأنا أفسر الحالة التي نحن بصددها اليوم، أو الكارثة التي نواجهها نتيجة الصراع بين السنة والشيعة، والتي صنعها مسلمون أوائل في فجر الإسلام، عن طريق إثارة الفتنة الكبرى، كما يقول الزميل عصام نعمان؛ أفسرها في ضوء نظرية العقل المجتمعي التي تقول إن المجتمع، باعتباره كيانا متميزا يتمتع بشخصية اعتبارية أو معنوية، قد تصبح شخصية قانونية مثل شخصية الدولة وشخصية المنظمات والاتحادات الدولية كالاتحاد الأوروبي أو الجامعة العربية؛ أقول هذا الكيان الاعتباري، يختزن، في عقله الجبار، الاحداث والقيم الماضية التي قد ترقى أحيانا إلى آلاف السنين الماضية. فيتبعها عادة معظم الأفراد الذين ينتمون إلى ذلك المجتمع، بدون وعي في الغالب، أو بوعي ولكنه تابع لعقلهم المنفعل، المتأثر أو الخاضع لذلك العقل المجتمعي. وهم في الغالب يتبنون تلك القيم والمسلمات القابعة في ذلك العقل المجتمعي، منذ نعومة أظفارهم، بشكل تلقائي من خلال أسرتهم ومجتمعهم. ثم تصبح جزءا من معتقداتهم الشخصية، ومسلماتهم العقائدية، يدافعون عنها بحماس وقد يبذلون حياتهم في سبيلها. ونلاحظ، من خلال هذه النظرية، أنه كلما ازداد المجتمع تخلفا أو بدائية، ازداد تمسكه بعقله المجتمعي المتخلف. وكلما ارتقى المجتمع في سلم التطور والتحضر، تطور عقله المجتمعي بنفس القدر، فأصبح يحمل قيما وأعرافا ومسلمات جديدة، الأمر الذي يؤدي إلى ضمور أو تلاشي القيم الماضية البالية. وهناك تفاعل جدلي (ديالكتيكي) نشط ومتبادل بين العقل المجتمعي للوحدة المجتمعية -com munity، والعوامل المتصارعة أو المتعاونة على تطور تلك الوحدة المجتمعية أو تخلفها، الأمر الذي يجعل ذلك العقل متأثرا بتلك العوامل، من جهة، ومؤثرا فيها، من جهة أخرى. ولئن نعترف أن هذه النظرية بحاجة إلى مزيد من التفصيل والشرح، نكتفي بهذا القدر الموجز لضيق المقام، علما بأننا شرحناها بتفصيل كاف في كتاب أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي المشار إليه أعلاه. ونقدم فيما يلي مثالين لتطور العقل المجتمعي تاريخيا:

أولا: العقل المجتمعي العربي الإسلامي

نحن نعتبر الإسلام ثورة على العقل المجتمعي الجاهلي المتخلف. ذلك لأنه انطلق من عقل فاعل، جاء بقيم جديدة استهدفت محو معظم القيم الجاهلية الموروثة. فقد حارب الإسلام البداوة التي تعتبر مرحلة بدائية ينبغي تجاوزها إلى مرحلة الزراعة الأكثر تقدما، للوصول إلى مرحلة الصناعة فالحضارة. فقد حاول الإسلام القضاء على العقلية البدوية، أو ما نطلق عليه العقل المجتمعي البدوي، الذي يختزن ويعتمد العصبية القبلية والصراع العشائري والتفاخر بالآباء والثأر، فقال: «إنما المؤمنون اخوة» وقال «إن أكرمكم عند الله اتقاكم» وقال «ولا تزر وازرة وزر أخرى» و«إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميَّة حميَّة الجاهلية» (سورة الفتح، 26). وخطب الرسول (ص) في حجة الوداع قائلا: إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء؛ كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. وعن مسلم أن النبي قال: «من قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية فقتلَ قُتلَ قتلة جاهلية» (العمية: الضلالة).

ولكن العقلَ المجتمعي البدوي، على الصعيد الاجتماعي، وقرينه العقل المنفعل، على الصعيد الفردي، كانا أقوى من تعاليم الإسلام ومبادئه. لأن قيم العقل المجتمعي تتجذر فتتحجر، ولا يصلحها أو يغيرها قانون وضعي أو شريعة سماوية، في الغالب. يقول أحمد أمين في «فجر الإسلام»: ومع كل هذه التعاليم، لم تمتْ نزعة العصبية، وكانت تظهر بقوة إذا بدا ما يهيجها، ويضيف: ولما ولي الأمويون الخلافة عادت العصبية إلى حالها كما كانت في الجاهلية، وكان بينهم وبين بني هاشم في الإسلام كالذي كان بينهم في الجاهلية (بيروت: دار الكتاب العربي، ط11، 1975، ص79).

وهكذا نحن نرى أن العقل المجتمعي العربي الإسلامي الذي يوجهّ ويسيرّ المجتمع العراقي، لم يتطور كثيرا منذ تلك الفترة، ذلك لأنه استجاب لمن أثاره وهيجه، فتلقف هذه الإثارة بعقل منفعل، بدل أن يستقبلها بعقل فاعل، يميز بين الصالح والطالح، وبين ما ينفعه ويضره، لا سيما والمفروض أن نلاحظ أن الآخر، هو الذي يريد لنا أن نختلف وأن نتصارع ونقتتل. انظر مثلا ما يحدث اليوم في فلسطين من صراع بين فتح وحماس!! ألم نأخذ دروسا من الماضي القريب حين قام هذا الآخر، مثلا، بصبّ الزيت على النار المستعرة، في الحرب التي تفجرت بين العراق وإيران، فساعد الطرفين، بشكل مباشر أو غير مباشر، فقُتل مئات الألوف منهما خلال ثمانية أعوام عجاف؟ يقول الزميل الدكتور عصام نعمان: يجب أن يعي العرب والعجم أن إدارة بوش تهدف إلى شقّ الإسلام السياسي إلى إسلام سنيّ وآخر شيعي والى إشعال الفتنة بين أهل كل من الفريقين (انتهى الاقتباس). ألم تقم أمريكا بإعطاء الضوء الأخضر للقيادة العراقية، من خلال حديث سفيرته في العراق أبريل غلاسبي، التي أشارت فيه الى أن النزاع بين العراق والكويت شأن عربي لا دخل لبلادها فيه، سيما وان الكويت لا تربطها ببلادها أي معاهدات ملزمة، وذلك قبل الشروع بغزو الكويت؟

ثانيا: العقل المجتمعي الأوروبي

وخلافا للعقل المجتمعي العربي الإسلامي تطور العقل المجتمعي الأوروبي على نحو آخر، لا سيما في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ثم تطور أكثر منذ انتهاء الحرب الباردة. فقد ظل هذا العقل مثقلا بأحداث الماضي البعيد والمتوسط والقريب، التي تركت آثارها المتناقضة والمدمرة عليه. فتعديلا لمقولة هانتغتون المتعلقة بتطور الصراع التاريخي في أوروبا الذي كان بين الملوك والأباطرة ثم بين الدول القومية، ثم بين الإيديولوجيات، أقول انه على الرغم من الصراع المرير الذي تجلى بالحروب الدينية ثم الصراع على السيطرة على المستعمرات واستعباد الشعوب المتخلفة، ثم التنافس على مناطق النفوذ للاستمرار في استغلال موارد الثروات الطبيعية وترويض الشعوب النامية؛ أقول مع تفاقم جميع هذه الصراعات التاريخية العنيفة، استطاع الأوروبيون ترويض عقلهم المجتمعي بواسطة استخدام عقلهم الفاعل بكفاءة عالية، فتمكنوا من تجاوز خلافاتهم التاريخية واختلافاتهم الثقافية واللغوية والقومية، فأقاموا سوقا أوروبية مشتركة، فاتحادا أوروبيا ناجحا بكل المعايير. بينما فشلت البلدان العربية في تحقيق أي قدر من الاتحاد، والتكامل، ناهيك عن تنفيذ الدفاع المشترك المنصوص عليه في المعاهدة، وذلك على الرغم من تميز هذه البلدان عن أوروبا بوجود لغة مشتركة وثقافة مشتركة وشعور قومي واحد، وحضارة عربية إسلامية واحدة (تاريخ واحد)، وتطلعات ومشكلات مشتركة، ودين يدين به 90 في المائة من العرب تقريبا، كما تنتسب البقية الباقية من الأديان الأخرى، إلى هذا الدين كثقافة وحضارة متميزة.

تُرى لماذا هذا التقصير الفاضح؟ هل نعلقه، مرة أخرى، عل مشجب الآخر فقط؟ أم يعود إلى أننا ما نزال خاضعين للعقل المجتمعي الذي تكرس قبل اكثر من 14 قرنا، ولم نتمكن من تعديله وتشذيبه وتحويله إلى عقل حداثي، عن طريق استخدام عقلنا الفاعل، لا عقلنا المنفعل المأفون والمفتون، بخلافاتنا الماضية!

وفي مقاله الأخير المنشور في هذه الصحيفة في 10/ 2007/1، تحت عنوان «هل أصبحت الفوضى طريقة حياة؟» يقول الكاتب المحترم عصام نعمان لم تستطع منظمات المقاومة حتى الآن بناء جبهة سياسية وكفاحية موحدة فيما بينها لتقوم بدور مرجعية وطنية قائدة للمرحلة الراهنة. فلسطين فقدت عمليا مرجعية منظمة التحرير ونفوذها، كما عجزت منظمات المقاومة فيها عن إقامة جبهة وطنية موحدة لتكون مرجعية وطنية بديلة.

ومرة أخرى أؤيد الكاتب في ملاحظته هذه، وأعزوها مجددا إلى تخلف العقل المجتمعي العربي، الذي لا يقبل الحلول الوسط ولا القواسم المشتركة، بل يصر على: إني على حق وغيري على باطل! ومن هنا نشأت الحركات الشيوعية أو القومية المتزمتة أو الإسلامية المتطرفة، التي تكفر كل من لا يتفق وفهمها للشريعة السمحاء.

ومن هنا أنطلق لأضع سيناريو محتمل، آمل أن لا يتحقق، ملخصه: إذا انسحبت أمريكا من العراق، وهو الأمر الذي يدعو إليه الديمقراطيون وعدد من الجمهوريين، في الكونغرس الأمريكي اليوم، كما أنه الأمر الذي أصبح في حكم المؤكد، إذا فشلت خطة الرئيس بوش، وهو أمر متوقع بنظر الكثير من الخبراء والسياسيين؛ فالسيناريو المحتمل هو أن تنشب حروب طاحنة بين فرق المقاومة التي تختلف اختلافا كبيرا في إيديولوجياتها. كما قد تستعر حروب مدمرة بين السنة والشيعة، قد تتدخل فيها أطراف عربية إلى جانب السنة، وإيران إلى جانب الشيعة. وقد تحدث حروب أخرى بين العرب والأكراد، فتشتعل المنطقة، أو يتقسم العراق إلى ثلاث دويلات (انظر مقالتي في هذه الصحيفة هل سيصبح العراق في ذمة التاريخ؟ في 11/12/ 2006) وهكذا تتحقق نبوءة الصديق عصام نعمان بالفوضى الخلاقة فيضحك الأعداء ويقولون: يا أمة ضحكت من جهلها الأمم، كما قال في آخر مقالته. وأتمنى أن لا نصل إلى هذا الحضيض.

* محام وكاتب من العراق يقيم في نيويورك

عولمة التعذيب.. وغوربة الديمقراطية

حسن ابراهيم الناصر *

■ الحياة مسرح يكشف لمتابعيه كل ما يدور في الخفاء، وخلف الستائر الملونة، ومهما بالغ المتفرج، في دقة ملاحظاته، يبقى المخفي أعظم. يبدو المسرح الحياتي هنا وقد اختلطت فيه الاتجاهات، وحارت به السبل، وبدا غير واضح وخاصة للذين يدعون التنظير في الفهم السياسي والثقافي، كنظرية متعلقة بالغرب بشكل عام.. وبالولايات المتحدة بشكل خاص، ولم يعد الأمر يتعلق بما يعانيه الآخرون من عذابات الروح والجسد في أقبية وزنزانات، تمنحها الديمقراطية الأمريكية على طريقتها الخاصة الى العالم، من النص: هذه هي الديمقراطية الغربية، التي طالما طبل، وزمر، بها بعض المفكرين في العالم الغربي، محرضين ايانا على مؤازرتها والوقوف في وجه أنظمتنا، وحكامنا، الذين أذاقونا ويلات السجون، والتعذيب، ومنعونا من تنشق رحيق الحضارة الغربية، والحرية الأمريكية، التي تمتع بها شعبنا العربي في العراق. وأكبر دليل على تلك الديمقراطية، ما نشاهده على الفضائيات في شوارع وأرصفة المدن العراقية.. جثثا.. جثثا مجهولة الهوية، ومشوهين، وقتل العلماء ونهب المتاحف، وتدمير بنية العراق الصناعية، واغتصاب حرائره وقراراته السياسية والاقتصادية، هل هذه هي حقوق الانسان «التي يبشرنا بها بعض المفكرين والمثقفين العرب، داخلياً وخارجياً والتي تمتع بها المعتقلون العرب والمسلمون في غوانتانامو، وأبي غريب، وغيره من سجون الديمقراطيات الزائفة؟ انها ديمقراطية تعدد السجون، واختراع آلات مبتكرة لفنون التعذيب». قد لا تبدو المقدمة القصيرة وافيه لمسارات الحدث المثير للجدل، في ظروف قد لا تكون متوقعة، قلبت فيها الطاولة وانكشف الغطاء عن خفايا المسرح الديمقراطي الجوال عبر بلدان العالم بدءاً من بلاد الديمقراطيات الغربية، الى غياهب السجون في بلدان العالم الثالث، أو العالم النامي. بلداننا التي تحلم بالحرية والتخلص من ترسبات زمنية فرضت نفسها على المكان والانسان. وربما يكون دافع الكاتب: محمد الحوراني، الى الغوص في هذا العالم الشائك، والكثير التعقيد، واجتهاده في بحور المعرفة أولاً، وتصديه الجريء لمواضيع حساسة وبالغة التأثير على حياتنا اليومية هي مدار الحدث الحالي. في جديد الكاتب: محمد الحوراني «عولة التعذيب» يفتح نافذة أو كوة في جدار سميك، كان حتى الأمس القريب من محرمات الدول النامية، بذرائع مختلفة، لقد تجاوز الكتاب الحد المعقول في معالجة قضايا ساخنة ومهمة، ولها تأثيرها الواقعي على تطور الحدث والتخلص من نتائجه المدمرة على الصعيد الداخلي، ولم تكن فكرة الكاتب هي الايحاء بهذه الدلائل والأدوات القذرة كنوع يؤخذ به.. أو يذكر الآخرين بتلك الأساليب البدائية فيكشف ما كان يخفيه التاريخ، وهذا يجافي الحقيقة التي يريد الكتاب طرحها.. وهي معالجة الموضوع بشفافية الاصلاح وتلافي تكرار الحدث بقدر ما يتضمن الكتاب أسراراً خفية عن أعين القارئ أو الشارع هي أحداث كانت تعيش في خيال المتلقي، ولكنه لم يكن يتوقع قراءتها بهذه السهولة في بحث الحوراني هذا والذي أجاب فيه على كل من يبحث، ويسأل، ويريد أن يكشف ما وراء القضبان الصدئة، وما وراء السواد. مما يظهر مدى القدرة التي يملكها المؤلف كباحث جاد وصحافي تميز بدقة الخبر واسناده، ووجد ضالته من خلال الذين عانوا من ظلم السجون وخاضوا غمار التجربة القاسية، والمريرة، وهؤلاء شهود على جرائم الاحتلال وتعذيبه.. أو من خلال ملاحقة ما ينشر في بعض الكتب، والدوريات العالمية المترجمة، أو ما يسمح به في الصحافة. الكتاب لا يتركنا حيارى كما تفعل بعض الكتب المهتمة بالدراسات السياسية والفكرية التي تتناول مواضيع ساخنة، ففيه يطرح الكاتب الحدث والرأي والأسباب.. ويوضح النتائج. ويعتبر جنوح البعض واختراقه المس بحق المواطن بالحياة الكريمة، وتعلقه بما توزعه دور النشر العالمية عبر الانترنت والعولمة من نتاج الفكر الغربي أو الفكر التكفيري الذي لا يتناسب مع التطور والحداثة في المجتمعات العلمية والعلمانية. في هذا الكتاب الذي يأتي بعد كتابه «التغلغل الاسرائيلي في العراق» الذي أظهر جدية الكاتب في الحوار والبحث عن وقائع اذا ما عولجت بشكل جدي وصريح، تؤثر في بناء الانسان السوي وتجعله يستعد لمواجهة كل الاحتمالات. هذا الانسان الذي أظهرته الحرب العراقية تائهاً ومشتت الفكر، وحائراً لتأتي بعض المشاركات أو تقاطع المصالح.. في غير صالح الوطن، وهنا المصيبة! اذ هل من العقل أن يساند ويؤيد أهل الأرض من يحتل أرضهم، ويغتصب حقوقهم؟

ووصل الأمر بالبعض الى حد الطلب والترجي من هذا العدو والمحتل أن يبقى ويدنس أرض الوطن. وهي حالة لم يعرفها تاريخ البشرية من قبل مواطنين عرب ومسلمين.. يطلبون من المحتل البقاء في بلدانهم! بحجج لا تبدو مقنعة مهما بلغت قسوة «الحاكم وجوره وتعديه على الحياة العامة» لتنهض كل فئات وطبقات المجتمع في وجه هذا الحاكم.. ولا تجرب التعاون مع المحتل، بالتأكيد هم يحملون جنسيات متعددة، لهذا تاهت مشاعرهم تجاه الوطن، وفداءه، والتضحية لأجله. اذاً الباحث لا يطرح الاشكالية والحدث لمجرد طباعة كتاب ونيل أجر عليه، انه واقع مفروض بالدقة والحوار وتقبل الرأي الآخر، والصراحة، والعمل على تحسين مستوى حياة الفرد، وتحقيق بعض المتطلبات التي تؤدي الى تصالح حقيقي بين الحكومات وبقية أفراد المجتمع، من خلال التلاقي على مصلحة الوطن. وحتى لا يتكرر ما حدث في العراق ينبه الكاتب الى هذه المخاطر جميعها، وهذا عمل له بعد وطني وانساني متميز وغيرة وطنية عالية، تدفعنا للاعتقاد أن عمل الكاتب الشاق لم يكن مجرد مصادفة.. أو حالة عابرة، فالكاتب: يبحث عن الوجه المخفي من الحقيقة الضائعة، ليبدأ مرحلة من التفكير الجدي بالخروج من حالة مرفوضة.. الى واقع يبحث عن تغير ايجابي يساهم في بناء مجتمع عربي واع ومتقدم. وهذه الدراسة الواقعية، تعالج أحداثاً معاصرة، وأحداثاً تراكم عليها الزمن ليدفع بها الى الحياة العملية من باب «معرفة الشيء أفضل من الجهل به» والطبيب الناجح، يكشف سبب المرض ليجد له الدواء.. ولا يمنح الدواء لمجرد شكوى المريض؛ لأن معالجة السبب قد تغير الواقع من حالة سيئة الى حالة جديدة حتى لا تتحول الى خطأ يصعب علاجه. ومن حيث المبدأ يطرح الحوراني: ثقافتين ـ ثقافة تتقبل التغيير وتبحث عن بدائل ممكنة لعلاج موروث زمني فرض ذاته... وثقافة حادة، جارحة، لها مردود مغاير ومباين لمتطلبات الحياة الجديدة لا تقبل الآخر، وترفض رأيه وتحاول الغاء ثقافته. ثقافة عليها أن تثبت تجربتها من خلال ممارسة الأنانية والشخصنة والتكفير. يقول الكاتب: «يعتقد البعض أن الولايات المتحدة الأمريكية، خالية من السجون. وهؤلاء الحالمون، والمراهنون على الغرب، أو الذين يصرون الى الحاقنا بالغرب وبأمريكا تحديداً، بغية تحقيق مصالح شخصية أو مادية، وليس لهم علاقة لا بحقوق الانسان، ولا بالديمقراطية المزيفة التي يتغنون بها ليل نهار». ويعتبرون أن أمريكا عبارة عن واحة من الحرية والعدالة، والديمقراطية، ولكن عندما يغوص المرء في واقعها أي «أمريكا» ويعرفها عن قرب يجدها المفرخة الرئيسية لأنظمة السجون المعقدة، وأدوات التعذيب الأقدر على خلق الاجرام والارهاب، على مستوى العالم.

وهنا يظهر الكاتب مدى حرصه السليم والعلمي الذي يحذر من ـ شدة القسوة في التعذيب لأنها لا تعني أبداً منع انتاج الارهاب.. بل قد تنعكس الحالة الى انتشاره بصورة أكبر وخاصة في المجتمعات المتشددة. من النص: من وجهة نظر شاهد خرج من السجن ليتحدث عن فكر السجان وراء القضبان: «عن أي حقوق تتحدثون؟ ليس لكم حقوق، رغبتنا فقط وما نريده نحن هو الحق الوحيد». وجهة نظر حادة وجارحة وغير مقبولة فالمواطن الذي لا يمنح حقوقه.. ليس عليه واجب. كتاب «عولة التعذيب» يشرح العولة، والتي هي ترجمة لمصطلحات ثقافية غربية، فهي تعميم الشيء واكسابه الصبغة العالمية وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله. ومما لا شك فيه أن للعولة تعريفات كثيرة، منها ما يتعلق بالشق الاجتماعي، ومنها ما يتعلق بالاقتصادي، وآخر يتعلق بالسياسي.

وهذا ما يعنينا لأنه يريد للقيم الأمريكية أن تكون هي المسيطرة على العالم بأسره، نوع من الهيمنة.. الأمركة. ودعاتها يستخدمون بعض المصطلحات الجذابة من أجل فرضها على جميع أبناء العالم. من النص يمكننا القول: «ان السياسة الأمريكية الخارجية، ومنذ فترة ليست قصيرة تناقض تماماً الجواب الذي أرسله وزير الخارجية الأمريكي، زمن الرئيس لنكولن، السيد شارل آدم سميث، الى كارل ماركس، عام 1864: ان حكومة الولايات المتحدة، تدرك تمام الادراك أن سياستها ليست سياسة رجعية، ويجب أن تكون كذلك أبداً.. والامتناع عن أي تدخل غير شرعي في الخارج، فمبادؤنا تفرض علينا تطبيق العدالة نفسها على جميع البشر، وجميع الدول. اننا نراهن على فوائد جهودنا لنيل احترام العالم». وهذا دليل على دوائر الكره التي تتوسع في العالم بوجه الثقافة التي أنتجتها الادارة الأمريكية الفاشلة. هناك سجون كشفت في بعض دول العالم لصالح المخابرات الأمريكية، منذ عام 2001 وخاصة في طائرات متجولة تخترق سيادة الدول بالقوة. ومن الأخطاء الشائعة القاتلة أن بعض العرب والمسلمين يعتقدون جازمين أن التعذيب صناعة عربية واسلامية بامتياز، وأن الغرب أخذ عنهم هذه الصناعة وطورها، ولكن العكس هو الصحيح. هذه هي الديمقراطية التي أرادت الولايات المتحدة تصديرها الى العالم العربي والاسلامي، انها ديمقراطية أقل ما يقال فيها ديمقراطية عنصرية الا أن زيفها وعنصريتها لم تنضح تماماً الا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، وما تبعه من تخلي الادارات الأوروبية والأمريكية عن مفردات حقوق الانسان، من خلال ما حدث ويحدث في معسكر «غوانتانامو» «وقلعة جانجي» أفغانستان و«سجن أبي غريب» العراق هذا أثبت أن الديمقراطية الغربية والأمريكية مزيفة. ويؤكد تراجع قيم الديمقراطية وتوظيف أساليب التضليل والخداع للرأي العام في محاولة للجم المعارضة الشعبية لها. ولأن المشكلة أكبر مما نتصور وأكبر مما يتحملها عقل فان الحروف تعجز عن التعبير عن جرائم التعذيب التي يلقاها أسرى الاحتلال الأمريكي أينما وجد، والشاهد على ذلك روايات الشهود والمعتقلين والمفرج عنهم، وخير دليل على ذلك الصور التي كشف عنها مراراً في وسائل الاعلام المقروءة والمرئية، وهي جزء بسيط مما يلقاه المعتقلون، من السادية والعنصرية التي يتمتع بها جنود الاحتلال والتي فاقت أي تصور. الكتاب جريء وغني بالأحداث والروايات والقرائن التي تظهر الجهد الكبير الذي بذله الكاتب في حصوله على هذه المعلومات الغنية لخلق حوار فكري ومعرفي متميز يتضح مما قرأناه أن أمريكا كدولة عظمى وشبه وحيدة تتطلع للسيطرة على الأرض، وأن تبلغ في غيها القمر والشمس والنجوم. ووضع يدها على النفط في العالم كله. ان أمريكا تسعى خلف رغباتها التوسعية منذ تأسيسها، وهي لم ولن تكون «كما يحلم بعض المنظرين للديمقراطية الأمريكية» قوة توازن في العالم. الادارة الأمريكية تعتبر قوتها الروحية متعلقة بالارث التبشيري كما تراه هي من وجهة نظر فردية تعنى بالسيطرة على الكون. فهل ينهض العرب والمسلمون لمواجهة كل ما يدبر لنا، وما يعده الغرب للسيطرة على بلداننا العربية والاسلامية.. فراداً وجماعات، قبل فوات الأوان؟

الكتاب: عولمة التعذيب.
المؤلف محمد الحوراني.
الناشر: مركز الراية للتنمية الفكرية ـ جدة ـ لعام 2007 . عدد الصفحات :190 من القطع الكبير.

السودان والوجه المظلم للمحكمة الجنائية الدولية

محمد خليفة *

■ سياسة العبث القانونية والأخلاقية تخطّت واقع الأحداث التي نعايشها في ما يتصل بقضية محكمة الجنايات الدولية. فقد بدا من خُططوا وساهموا في إنشاء هذه المحكمة أنهم ينحرفون عن الحق والحقيقة والقانون ويقفون مع الأنظمة الاستعمارية والباطل. فقد بدأت تتكشف أهدافهم ونواياهم.

إنها حقيقة مؤلمة وموجعة في الأسلوب وفي الاتجاه بعد أن اندفع الكثير من الدول العربية والإسلامية في التصديق على هذه المحكمة وتأييدهم المطلق لجميع بنودها. وإلاّ كيف يمكن أن نتصورّ ما نشرته وزارة الخارجية الأمريكية من أن تقرير المدعي العام في المحكمة الجنائية الدولية، ويدعى لويس مورينو أوكامبو، قد أبلغ مجلس الأمن الدولي يوم 15 ديسمبر أن لديه ما يكفي من الأدلة حول ارتكاب جرائم قتل متعمّدة، وعمليات اغتصاب جماعية ونهب وسلب لمدن بأكملها لتوجيه الاتهام إلى عدد من الأشخاص بارتكاب جرائم حرب في إقليم دارفور السوداني بحلول فبراير ,2007

وقد أسعد هذا الخبر وزارة الخارجية الأمريكية فقامت بنشره عبر وسائل إعلامها الخارجي وذلك في مسعى منها لتوجيه رسالة للمسؤولين السودانيين مفادها أنه لا مهرب لكم من المحكمة الدولية، وأنه إما أن تنزلوا عند رغبة واشنطن وتقبلوا بتسليم السودان لها، وإما أن تتعرضوا للمحاكمة العتيدة وللعقاب.

والمضحك أن الولايات المتحدة التي ابتهجت لتحريك الدعوى في المحكمة الجنائية الدولية ضد قادة السودان، هي الدولة الوحيدة في العالم ـ بالإضافة إلى ربيبتها إسرائيل ـ التي اعترضت على إنشاء محكمة الجنايات الدولية. وأبرمت عدّة اتفاقيات مع دول تابعة لها في العالم تمتنع بموجبها هذه الدول من تسليم المسؤولين الأمريكيين العسكريين والمدنيين إلى هذه المحكمة. لكن إذا كانت الولايات المتحدة قادرة على إبرام مثل هذه الاتفاقيات، فإن السودان وسواه من الدول الصغيرة في العالم غير قادرة على فعل هذا الشيء. ولعل هنا مكمن الداء، فالدول الصغيرة والفقيرة تكون دائماً الضحية، سواء عن قصد منها أو عن غير قصد. فهذه الدول هي أول من هلّل ورحّب بإنشاء محكمة الجنايات الدولية، وسارعت قبل غيرها إلى الانضمام إلى ميثاق نظامها الأساسي المسمى «نظام روما» الذي رأى النور في 17 يوليو 1998.

وربما لم تعلم هذه الدول أن القضاء الدولي سيكون سيفاً مسلّطاً على رؤوسها هي، وأن قوى الاستكبار العالمي لن تخضع لهذا القضاء ولا لسواه من المواثيق والعهود الدولية. وعلى العموم، فقد وافقت هذه الدول، وأصبحت محكمة الجنايات الدولية حقيقة واقعة وأداة من أدوات قوى التسلّط في العالم. ويا للأسف، فإن هذه المحكمة قد افتتحت أعمالها بقضية ما يسمى «جرائم الحرب» في دارفور، مع أن ما ترتكبه إسرائيل من قتل منظّم بحق الشعب الفلسطيني منذ أكثر من ستين عاماً يتطلّب من هذه المحكمة المسارعة إلى محاكمة إسرائيل. لكن المحكمة «الموقّرة» لم تسمع بهذه الجرائم وكأنها تحدث في كوكب آخر، ودأبت على موضوع السودان وجعلته مهجة قلبها وغايتها من تطبيق «العدالة الدولية».

ومن هنا، لا يمكن للمرء أن ينظر ببراءة إلى هذه المحكمة، ولا يمكن له إلاّ أن يتوجّس منها خيفة. ومنذ أن اشتعلت أزمة دارفور مطلع عام 2003 بتدبير من بعض الجهات الدولية لتدمير السودان، تحرّك المجتمع الدولي والأمم المتحدة والمسؤولون في عواصم الغرب نحو دارفور، وكأنه لا يوجد في الأرض أزمة سواها، وأرسل الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي عنان لجنة دولية لتقصّي الحقائق في دارفور وتحديد المسؤولين عن العنف في الإقليم.

وقد كتبت هذه اللجنة تقريراً مطولاً يتهم 51 مسؤولاً معظمهم من الحكومة السودانية والقليل من قادة المتمرّدين، بأنهم يقفون وراء العنف هناك. وعلى الفور أخذت الولايات المتحدة هذه اللائحة وتحركت في مجلس الأمن بالتعاون مع حلفائها الغربيين، فصدر قراران دوليان، الأول يحمل الرقم (1591) وهو يفرض عقوبات على السودان، والثاني، هو القرار رقم (1593) والذي تبنّته فرنسا، ويقرر إحالة المتهمين في انتهاكات دارفور إلى محكمة الجنايات الدولية.

وعلى الرغم من أن الحكومة السودانية قامت بعقد محاكمات لأربعة عشر متهماً في جرائم في دارفور، إلاّ أن ذلك لم يقنع الولايات المتحدة ولا المسؤولين الدوليين في الأمم المتحدة وفي محكمة الجنايات الدولية، حيث رأى هؤلاء أن هذه المحاكمات صورية وأصرّوا على متابعة محاكمة المسؤولين السودانيين أمام محكمة الجنايات الدولية، مع أن هناك نصاً في النظام الأساسي لهذه المحكمة يقول: إن القضاء الدولي ليس بديلاً عن القضاء الوطني، بل هو مكمّل له «المادة 1 من النظام الأساسي». وبالتالي، كان يجب على محكمة الجنايات الدولية أن تقتنع بما أجرته الدولة السودانية من محاكمات بحق المتهمين في ارتكاب جرائم في دارفور. لكن هذه المحكمة، كغيرها من المؤسسات الدولية، خاضعة لإرادة الولايات المتحدة وتأتمر بأمرها. ولهذا، قامت بتحريك الدعوى العامة ضد المسؤولين السودانيين المذكورين في لائحة الأمم المتحدة رغماً عن إرادة السودان، وخرقت بذلك اتفاقية نظامها الأساسي التي وقّع عليها السودان مع غيره من الدول العربية والكثير من الدول الأخرى في العالم. وبعد أن تبيّن الوجه القبيح لهذه المحكمة، فهل تتحرك الدول العربية للانسحاب من اتفاقية هذه المحكمة قبل أن يُذبح السودان بيديها الغادرتين؟.. وقبل أن لا يأتي الدور على دولة عربية وإسلامية أخرى.

* كاتب من الإمارات
medkhalifa@maktoob.com

العرب وايران والطاقة النووية!

د. جمال المجايدة *

■ هل العرب بحاجة الي الطاقة النووية اللازمة لتوليد الطاقة مثل الكهرباء وتحلية المياه؟ نيل والكر الخبير البري